المحاولات العربية لفتح القسطنطينية

فى العصر الأموى

د. صلاح حسن العاوور (*)

يمثل ظهور الإسلام نقلة حاسمة فى تاريخ العرب ، إذ حقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل منهم أمة قوية موحدة مرهوبة الجانب ، تغلبت فى عصر الفتوحات زمن الخليفتين الراشدين أبى بكر وعمر على أمم عريقة فى الحضارة ، لها نظمها الإدارية والاقتصادية المنظمة . وأحس العرب بعد أن فتحوا بلادا تطل على البحر المتوسط بضرورة اصطناع سياسة بحرية لمواجهة غارات الروم البحرية ، أصحاب السيطرة البحرية على هذا البحر . ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب يرهب البحر ويخشاه أو يشفق على المسلمين من ركوبه ، كما يزعم البعض ، ولكنه كان بعيد النظر ، سديد الرأى فالعرب كانوا حديثى عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط . والعدو الذى يواجهونه هم الروم أو البيزنطيون خصم عنيد متمرس فى شؤونه وثقافته متدرب على ركوبه وخوض مياهه(1) . وكان أن أدرك الخليفة عمر أن العرب فى ذلك الدور المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم فى البحر لقلة خبراتهم البحرية(2) .

وقد علل ابن خلدون سبب امتناع العرب فى أوائل العصر الإسلامى من ركوب البحر بقوله(3) : (والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا فى أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والفرنجة لممارستهم أحواله ومزاياهم فى التغلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النوتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت

(*) مدير مركز خان يونس – جامعة القدس المفتوحة .

ممارساتهم البحر وثقافته استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه فأنشأوا فيه السفن والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس) .

ومن أمثلة القصص والروايات التى نسبت إلى عمر بن الخطاب والتى يفهم منها كراهيته لركوب البحر وتخوفه منه ، ما هو سائد عند جمهور مؤرخى المسلمين من أن العرب لم يكونوا محبين لركوب البحر فى يوم من الأيام . وهذا قول خاطئ إذا ما أخذ على إطلاقه .

والواقع أن عمر كان بما جبل عليه من روية يستهدى المنطق السليم وهو يكبح جماح قواده عن الغزوات التى قد يبدو له فيها ولو نذر يسير من مخاطرة بأرواح المسلمين . ولم يكن سلوكه هذا مقصوراً على الحروب البحرية فحسب ، بل كان كذلك بالنسبة للحروب البرية ، فقد عارض أيضًا من قبل ما عرضه عليه عمرو بن العاص من فتح مصر رغم أن طريق الغزو كان برًا . فعمر من حرصه على سلامة المسلمين كان يخشى أن يتسع نطاق الغزو إلى حدود لا يمكنه الدفاع عنها . وجريًا على السياسة الحميدة التى أنتهجها المسلمون وهى الشورى فى أمور الدولة العليا ، فقد رأى عمر أن يعرف آراء قادة المسلمين فى طلب معاوية غزو قبرص ، وهى غزوة بحرية ، وفيها من المخاطرة ما يستوجب الدرس والروية ، خاصة أنه لم يكن لدى العرب فى ذلك الوقت عدد كاف من السفن ينازلون به الأسطول البيزنطى إذا التقوا به(٤) .

وكان الصراع شديدا بين الدولة الإسلامية الفتية والإمبراطورية البيزنطية العتيدة ، وخاصة عقب فتح الشام ومصر ، فجهز البيزنطيون فى سنة ٢٥هـ — ٦٤٥م حملة بحرية من ثلاثمائة سفينة بأمر الإمبراطور قسطنطنين بن هرقل

« كونستانز الثانى » فى سرية تامة ، واستطاعوا استرجاع ثغر الإسكندرية بقيادة ما نويل .. وكانت مصر آنذاك تحت إمرة مندوب عمرو بن العاص وهو عبد الله ابن سعد أبى سرح . ولكن سرعان ما جهز عمرو عقب عودته للبلاد حملة برية استعاد بها الإسكندرية من أيدى البيزنطيين .

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان فى الواقع مؤسس البحرية الإسلامية إذ فطن إلى أهمية الأسطول البحرى لحماية الثغور ورد هجوم البيزنطيين من البحر[٥] .

وكان أول من قام بغارة بحرية من شواطئ شبه الجزيرة هو عثمان بن العاص الثقفى والى البحرين ، فقد أبحر من عمان فى غارة جريئة على ساحل الهند « تانة » بالقرب من بمباى ، كما اتجه أخوه إلى خور « الديبل » عند مصب نهر السند ، ولما رجع جيش عثمان الثقفى من تانة كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بذلك ، فكتب إليه عمر : (يا أخا ثقيف حملت دودا على عود ، وأنى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم)[٦] . وأراد العلاء بن الحضرمى خليفته فى ولاية البحرين أن يظهر جرأته وأقدامه فعبر إلى فارس وتوغل فيها بعيدا حتى اصطخر فارس ، وكان ذلك بتحريض من أهل ولايته فجمع لذلك اثنتا عشر ألفا من المسلمين وركب البحر . وعلى الرغم من أن المسلمين عادوا إلى البصرة محملين بالغنائم إلا أن الحملة باءت بالفشل وفقد المسلمون سفنهم التى عبروا بها الخليج إلى فارس . فلما علم الخليفة بأمر تلك الحملة غضب على العلاء غضبا شديدا لأنه قام بها دون إذن منه لذا قرر عزله[٧] .

طلب معاوية بن أبى سفيان إلى عمر بن الخطاب وألح فى أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا لقربها منه ، إذ كان يشغل وقتئذ ولاية الشام ، طلب عمر إلى والى مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، على اعتبار أن مصر من الأمم التى مارست ركوب البحر وعرفت فنونه كما عرفت أخطاره ومخاوفه منذ العهد الفرعونى ، فكتب عمرو يقول : (يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقا

كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء ، أن ركد أحزن القلــوب وإن ثــار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة هم فيه كدود على عــود إن مــال غرق وإن نجا برق)[٨] . فلما جاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية يمنعــه مــن ركوب البحر قائلاً : (لا والذى بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبــدًا . إنــا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شئ على الأرض ، يستأذن الله فى كل يــوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فكيف أحمــل الجنــود فــى هــذا الكــافر المستصعب . وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم فإياك أن تعرض وقد تقدمــت إليك وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك)[٩] .

وعلى الرغم من سياسة الحذر والحيطة التى انتهجها عمر فى ركوبه البحــر الأبيض المتوسط فإنه لم يتوان عن تسيير حملة بحرية فى البحــر الأحمــر ضــد الأحباش ردا على هجماتهم على السواحل الغربية[١٠] .

ففى سنة ٢٠هـــ / ٦٤١م أرسل عمر علقمة بن مجزر فى حملة بحرية عــبر البحر الأحمر إلى الحبشة ليذب عن المسلمين ويدفع عنهم هجمات علــى الشــاطئ الحبشى وقد استبسل المسلمون فى الحرب .

ولكن هذه الحملة منيت بخسارة جسيمة وغرقت السفن كلها ، وبســبب هــذه الكوارث المتتابعة صمم الخليفة ألا يقوم بأى عمل بحرى قــائلا : (لا يســألنى الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبدا)[١١] .

ومع ذلك فقــد بدأت الملاحة النهرية للمســلمين فى عهد عمــر ، فالخليفــة أمر عمرو ببناء سفن لتحمل الغلال ومحصولات أخرى إلى المدينة قــائلا : (إن الله قــد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطــعام وقــد ألقى فى روعــى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتــح الله عليــهم مصــر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يســيل فى البحــر

فهو أسهل لما يزيد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد)[١٢] .

ولما تلكأ عمرو فى تنفيذ ما أمر به الخليفة رد عليه عمر قائلاً : (إلى العاص بن العاص فقد بلغنى كتابك ... وأيم الله لتفعلن ... أو لأبعثن من يفعل ذلك)[١٣] .

ويقال إنما دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من قبط مصر فعافاه عمرو من الضرائب مكافأة له ، فشق قناة ملاحية طولها ٦٩ ميلاً تصل بين النيل والبحر الأحمر ، وسميت خليج أمير المؤمنين ، وحينما اجتاحت المجاعة شبه الجزيرة العربية لعبت هذه القناة دوراً هامًا فى نقل القمح من مصر إلى الجزيرة العربية فقد أفرغت عشرون سفينة محملة بمنتجات مصر حمولتها فى ميناء الجار قرب المدينة المنورة ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه حاضرًا مرحبًا بهذه السفن عند وصولها[١٤] .

ولكن حين أراد عمرو بن العاص أن يجعل الإسكندرية حاضرة مصر كتب عمر يقول له : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف . فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم براحلتى حين أقدم إليكم قدمت .

ولعل فى ذكر البحر والفلك التى تجرى فيه بما ينفع الناس فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ما يشعر بأن من العرب من كانوا يعرفون ركوب البحر .

فقد ورد القرآن الكريم ٢٨ آية عن الفلك والبحر والملاحة منها فى سورة النحل ما يؤدى معنى الصيد واستخراج اللؤلؤ ونقل التجارة والركاب : { وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون }[١٥] .

ومنها ما يتعلق بالملاحة الفلكية مثلما جاء فى قولـــه تعــالى : { وعلامـــات وبالنجم هم يهتدون }[١٦] .

وفى سورة الأنعام : { وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات الـبر والبحر }[١٧] .

كما صور القرآن حال المسافرين فى بحر مضطرب لجى فى ســـورة النـــور فى قوله تعالى : { أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج مـــن فوقـــه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله لـــه نورا فما له من نور }[١٨] .

وقوله تعالى : { مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان }[١٩] .

وقوله سبحانه وتعالى : { ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا مـــن فضله أنه كان بكم رحيما }[٢٠] .

فهذه الآيات الكريمة تشير فيما تشير إليه إلى تسخير البحر وتذليله وجريـــان الفلك فيه بطلب فضل الله كالربح بالتجارة واستيراد محصـــولات الأمـــم الأخـــرى وغير ذلك من المصالح الدينية والدنيوية ، وهذا كله يتطلب السفر وركوب البحر .

وكذلك جاء ذكر البحر وركوبه فى الأحاديث النبوية فى سبيل نشـــر الدعـــوة الإسلامية ، فقد روى الجاحظ بن السنى عن الحسين بن على رضى الله عنه عـــن الرسول ﷺ فيما يذكره راكب البحر إلى الجهاد جهاد الكفار قال : { أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا بسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيـــم وما قدروا الله الحق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويـــات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون }[٢١] .

سياسة معاوية البحرية :

يرجع الفضل الأعظم فى إنشاء الأسطول العربى الإسلامى إلى معاوية بن أبى سفيان ، عامل الشام فى خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، الذى فطن إلى أهمية الأساطيل فى الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن الساحل فقد تعرض للكثير من المتاعب فى فتح بعض تلك المدن كقيسارية وطرابلس وعسقلان . أما قيسارية فقد عجز عمرو بن العاص عن فتحها ، إذ كانت تتلقى الإمدادات من البحر ، فتولى معاوية فتحها قسرا فى شوال ١٩هـ — ٦٤٠م بعد أن كان قد يأس من ذلك .

وأما طرابلس فقد استعصت على المسلمين فى ولاية يزيد بن أبى سفيان لمناعتها ووثاقة تحصيناتها ، وكان فتحها يستلزم حصارا بريا وبحريا قد يطول أمده كما حدث فى حصار قيسارية الذى دام ما يقرب من سبع سنوات من جمادى الأولى سنة ١٣هـ إلى شوال سنة ٢٠هـ فاضطر يزيد إلى إرجاء فتح طرابلس حتى تتوفر لديه الإمكانيات[٣٣] . أما عسقلان فقد فتحها صلحا بعد كيد ، وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة . فلما توفى يزيد بن أبى سفيان فى طاعون عمواس آلت ولاية الشام إلى أخيه معاوية الذى كان يشاركه فى فتوحه لمدن الساحل .

أطل المسلمون على مياه البحر المتوسط من شواطئ طويلة ، تمتد من طرسوس شمالا إلى برقة جنوبا ، وتواجه فى هذه المياه أعداء ألداء ، دأبوا على الإغارة على هذه الشواطئ الإسلامية وقض مضاجعهم بها .

أدرك معاوية بثاقب نظره المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين فى حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان وكان بقاء الدولة المنتصرة رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحر وما له من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع معاوية إلى أبعاد مخالب البيزنطيين

التى كانت تتحفز لتنشب مرة أخرى فى شواطئ الشام ، وعمد إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايته والتى كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسديد ضرباتها حيثما تشاء إلى أرض المسلمين(٣٣) .

وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام الحجر الأساسى فى صرح العمليات البحرية الأموية فيما بعد ، وفاتحة المجد البحرى الإسلامى على الإطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحرى الذى رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص مبينا له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطى على سلامة مدن الشام ، إذ جاء فى خطابه : (يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص) ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالبا السماح له بغزو هذه الجزيرة فرفض عمر طلبه(٣٤) .

ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينه تماما عن أى خطر يلوح فى الأفق مهددا ولايته وأرض الإسلام . فكتب إلى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية ، إذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث فى شئ منها حدث من قبل العدو ، سربوا إليها الإمداد . فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهيأة لإقامة الجند الإسلامى ، وتمكنه من الدفاع عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا لسلامتها(٣٥) .

وامتثل معاوية لما أمره به عمر ، فحصن الثغور الإسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها طوال فصل الصيف ، ويتولون حراستها فى المناظر والأبراج والمناور ، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ . وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات التى ترابط فيها

حاميات مرابطة تنقسم كل منها إلى عرافات أى مجموعات وكل عرافة تتألف من مائة رجل. وكانت هذه التحصينات مزودة فى أعلاها بمواقيد يشعلها الحراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الأعداء منه ليلاً(٣٦) .

وبهذا حصن معاوية المدن الساحلية وزودها بالقوات المحاربة ، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحرًا إلى أى مكان يشاء . ووضع لهذه المدن نظامًا عرف بالرباط وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءًا مرتبطًا أشد الارتباط بالجهاد . حيث اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين دائمًا على إعزاز الإسلام ونصرته .

فأصبحت الرباط حصونًا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ، وملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق التى يدهمها العدو . وقد خصص حاميات فى الرباط لإنذار الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى مياه الإقليمية . فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرج للمراقبة . ثم لم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات(٣٧) .

ولما قويت شوكة المسلمين بعد ذلك وتوسعت فتوحاتهم وزادت خبرتهم بالبحر وفنونه كتب معاوية إلى عثمان يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص .

ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها ، فرد عليه ينهاه عن ذلك كما نهاه عمر بن الخطاب من قبل ، ويأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل .

وفى بداية خلافة عثمان تغلب البيزنطيون على بعض سواحل الشام ، فقصد لهم معاوية حتى افتتحها ، ثم رمها وشحنها بالمقاتلة ، ومنحهم القطائع[٢٨] .

فتح قبرص سنة ٢٨هـ :

وفى سنة ٢٧هـ أعاد معاوية طلبه موضحًا أهمية البحر مهونًا ركوبه فأذن له عثمان وأوصاه : (فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونًا لك وإلا فلا ، ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه)[٢٩] . وقد نفذ معاوية أمر الخليفة وحمل معه امرأته فأخته بنت قرظة وجماعة من الصحابة فيهم أبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وفضالة بن عبيد الأنصارى ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت الذى حمل معه زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية . وأعدت السفن لنقل القوة العربية على ساحل عكا ، وهناك أقام معاوية بعض الوقت رمم خلاله تحصينات عكا وصور ، ثم أبحرت الحملة إلى قبرص فى ربيع سنة ٢٨هـ ، وكانت هذه الحملة أول غزو للمسلمين فى البحر ، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها . وما كادت السفن العربية ترسو إلى ساحلها حتى أذعن أهل قبرص بالطاعة للمسلمين ، وبعث حاكمها يطلب الصلح، فصالحه معاوية على جزية سنوية يؤديها له أهلها ، واشترط عليهم أن يلتزموا موقفًا حياديًا فى الصراع العربى البيزنطى ، وأن يبلغوا المسلمين بسير عدوهم من البيزنطيين .

فلما كانت سنة ٣٢هـ أعان أهل قبرص البيزنطيين على الغزو فى البحر بسفن قدموها لهم فغزاهم معاوية فى سنة ٣٣هـ فى خمسمائة سفينة ، وافتتح قبرص فى هذه المرة عنوة ، ثم أقرهم على صلحهم[٣٠] .

وعاد معاوية إلى الشام منتصرًا ، مدونًا أول سطر فى سجل النشاط البحرى الإسلامى وحقق فوزًا باهرًا فى ميدان جديد ، رفع به من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما اتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، واظهر أنهم فى سبيل عزة

الإسلام وأرضه يذللون سائر العقبات . كذلك برهن معاوية بانتصاره على أهالى قبرص أن سياسته البحرية قامت على أسس وطيدة لا بد أن يؤتى أكلها ، حيث كان خضوع قبرص لمطالب معاوية بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

وهكذا بدأ نشاط بحرى إسلامى اتسم بطابع الغارات سنويا ، صيفا وشتاءا «الصوائف والشواتى » على الجزر البيزنطية ، التى يخشى خطرها ، أو التى قد ينبعث منها ضرر يحيط بأرض الإسلام . وأثبت المسلمون فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم البحرى فهما جيدا لطبيعة الجزر البيزنطية فى البحر المتوسط الشرقى، إذا رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز استراتيجية هامة، ولشل حركات البيزنطيين البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولذا سارت الغارات الإسلامية على هذه الجزر وفق خطوات منظمة مرسومة تهدف أولا إلى تأمين سلامة البلاد الإسلامية من الجزر القريبة مباشرة من أراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عدد من المضايق البحرية لسد الطريق فى وجه الأساطيل البيزنطية . وأظهر أمراء البحار المسلمون فى سبيل تنفيذ هذه الأهداف من المهارة والجلد ما رفعهم إلى مصاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

وقد استرعى نظر المسلمين أثناء إغارتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى أرواد بالقرب من ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس وكان أهلها يحترفون القرصنة . وكان أن عقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها وأعد حملة لمهاجمتها سنة ٢٩هـ أى فى العام التالى لعودته من جزيرة قبرص بعد إغارته الأولى عليها . واستطاع المسلمون أن ينزلوا بأرض الجزيرة ، ولكن رفض الأهالى الإذعان لهم والتسليم ، واعتصموا بقلعة

الجزيرة . وهكذا عاد المسلمون إلى دمشق مصممين على تأديب أهالى هذه الجزيرة فى العام التالى .

وفى العام التالى هاجم المسلمون جزيـــرة أرواد بقـــوة كبـيرة ، وأحرقـــوا العاصمة وقلعتها ، وألزموا جميع أهاليها بإخلاء الجزيرة تماما جزاءا على عنـــادهم الذى تجلى فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة . ولم يكن فى هذا التصرف الــذى اتخذه المسلمون شئ من التعسف ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهمهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ، ووسائلهم التى اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم . فكان أهـــالى أرواد يتجنبون دائما الهزائم القاصمة ، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه حتى يزول الخطر المحيق بهم ، ولذا قضى المسلمون نهائيا على هذه الجزيرة ومنعتـــها ، وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ، ولا سيما بعد أن كشفوا القناع عـــن نواياهم فى وضوح وجلاء[٣١] .

إعادة فتح قبرص عام ٣٣هـ / ٦٥٣ – ٦٥٤م :

وفى عام ٣٣هـــ / ٦٥٣م قام المسلمون بـــــهجوم ثـــان علـــى قـــبرص لأن القبارصة لم يرعوا شروط الصلح التى فرضها معاوية ، وكانت تهمتهم أنهم أعاروا الإمبراطور سفنا ، فخرج إليهم أسطول إسلامى يتكون من خمسمائة ســـفينة تحـــت إمرة أبى الأعور ، ولكن السكان عندما سمعوا بهذا النبأ اعتصموا بالتلال ، وبقـــــى أبو الأعور أربعين يوما فى كونستانتيا حتى أذعن له الأهالى ووعدهم أن يؤمنـــــهم على حياتهم ، وعاد إلى سوريا ومعه الغنائم الوفيرة بعد أن ترك وراءه قـــوة مـــن أثنى عشر ألـــف رجل فى مدينة شيدت لهم خصيصا وثبت شروط الجزيـــة التـــى فرضت عليهم فى المرة الأولى وقد شيد المساجد فى هذه الجزيرة[٣٢] .

فتح رودس سنة ٣٣هـ / ٦٥٣ – ٦٥٤م :

وفى سنة ٣٣هـــ / ٦٥٣ – ٦٥٤م اتجه الأسطول الإسلامى نحو رودس أهم جزر بحر إيجه ، وأعلاها مكانة فى الدولة البيزنطية من حيث نشاطها البحـــرى ،

وحركة صناعة السفن بها . فهذه الجزيرة أول حلقة فى سلسلة أرخبيل بحر إيجة من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد أثنى عشر ميلا تقريبا من الساحل لآسيا الصغرى . وأهلها هذا الموقع لأن تكون خطرا جاثما على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية .

وكانت هذه الحملة تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدى ، الذى استطاع أن يستولى على الجزيرة عنوة ، وأسس المسلمون فيها رباطا لهم يدافعون منه عن الشام ، وأمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة ، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها وبلغ من اهتمامه بحماية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائما ، ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدة طويلة ليبقى على بأس الحامية وقوتها . وآثر معاوية أن يحيط المسلمين فى رودس بالجو الإسلامى الدينى ، ويعلى راية الإسلام بين سائر أهاليها ، فأرسل إليها فقيها يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن ويفقههم فى الدين .

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية فى وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين . وعمل على تحقيق ذلك بالاستيلاء على جزيرة إقريطش (كريت) ، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماما على بحر إيجه ، الذى يشبه طرفه الجنوبى فوهة قربة تمتد اقريطش عبرها بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلا ، وتقسم الجزيرة هذه الفتحة إلى مدخلين تتحكم فى كل منهما . وأرسل معاوية جنادة الذى استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لمهاجمة الشام. على أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها(٣٣) .

ونستطيع القول أن هذه الحملات دعمت سيادة العرب على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط . فقد أدرك الإمبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة أن الأسطول الإسلامى صار قوة عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن دولة الروم لن تستطيع بعد الآن إخراج العرب من الديار التى حلوا بها على شاطئ هذا البحر ، فصرفوا النظر نهائيًا عن فكرة استرداد البلاد التى كانت تابعة لهم من يد العرب ، وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع .

معركة ذات الصوارى ٣٤هـ / ٦٥٥م :

كان النجاح البحرى الذى حققه المسلمون فى قبرص ورودس وكريت وأرواد حافزًا شجع معاوية بن أبى سفيان على توسيع خططه البحرية لتأمين أرض الدولة الإسلامية وإزاحة أى شبح بيزنطى يحتمل أن يهدد أمنها .

فاتجه نظره إلى القسطنطينية المحرك الذى يدير شؤون الدفاع البحرى عن الجزر البيزنطية فى البحر المتوسط فهى الرأس المدبر للتنظيم البحرى للدولة البيزنطية .

وأدرك المسلمون ألا استقرار لفتوحاتهم إلا بالاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وإدخالها فى حظيرة الإسلام ، كما تم لهم من قبل الاستيلاء على المدائن عاصمة الدولة الفارسية .

وانقسمت الإدارة البيزنطية البحرية إلى قسمين لكل منهما اختصاصاته ، ومظاهر تعاونه مع بعضها البعض بما يكفل صد أى عدوان يقع على أراضى الدولة البيزنطية . فكان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للإدارة البحرية البيزنطية، الأولى أساطيل تابعة للأقاليم والمقاطعات التى تنتظمها الدولة البيزنطية، والثانية أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها .

وكان التعاون بين الأسطولين البيزنطيين إبان غارات معاوية البحرية غير وثيق لفساد الأحوال فى العاصمة البيزنطية ، وامتلائها بالمؤامرات والدسائس ولكن ما كاد الإمبراطور قنسطانز الثانى ينفرد بالعرش ويبلغ سن الرشد ، حتى عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحرى[٣٤] ، فعمل على بث روح الحياة والنشاط فى أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات ، استعداداً لمناهضة حركات معاوية المقبلة .

وكان معاوية على رأس القوات البرية المتجهة إلى مدينة قيصرية فى قبادوقيا فى آسيا الصغرى . أما الأسطول الإسلامى المكون من سفن شامية ومصرية فكان بقيادة عبد الله بن أبى السرح الذى ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا عند فوينكس حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطى على رأسه الإمبراطور نفسه يهدف صد تقدمه .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطى على أن قنسطانز الثانى صمم على وضع حد لاتساع الفتوحات الإسلامية وكسر شوكتها نهائيًا ، على حين دلت المجهودات التى بذلها معاوية فى إعداد أساطيله على صدق عزيمة المسلمين فى الجهاد أرض الإسلام ، وإظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية فى هذه المرحلة المبكرة من دخولها فى حظيرة الإسلام[٣٥] .

والتقى الجمعان فى البحر وكانت الرياح غير ملائمة فقضى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح ، وأخذا يستعدان فيها ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله على حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالنواقيس . وفى صبيحة اليوم التالى دارت المعركة .

وقد هال المسلمين منظر البحر الذى امتلأ سفنا بيزنطية . ويروى الطبرى رواية على لسان مالك بن أوس بن الحدثان أحد رجال المسلمين قال[٣٦] : (كنت معهم فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا

فأرسينا ساعة ، وأرسوا قريبًا منا ، وسكنت الريح عنا فقلنا : الأمن بيننا وبينكم . قالوا : ذلك لكم ولنا منكم ، ثم قلنا : إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر . قال : فنخروا نخرة واحدة ، وقالوا : الماء فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم فقاتلنا أشد القتال ، ووثب الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن ويتواجئون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما) .

وهكذا اشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم فى معركة عنيفة ، بعد أن ربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض وحولوا المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية وقام عبد الله بن سعد بصف المسلمين على نواحى السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ، ويأمرهم بالصبر والثبات فكان القتال شديدًا ، وقتل من الجانبين أعدادًا هائلة وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين ، ولم ينج من الروم إلا من تمكن من الهرب[٣٧] .

(وأقام عبد الله بذات الصوارى أياما بعد هزيمة القوم ، ثم أقبل راجعًا)[٣٨].

وبهذا الانتصار الرائع ثبتت للمسلمين السيطرة على حوض البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين ، ويعتبر هذا الانتصار حدًا فاصلاً فى تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية فى مهدها، ولو أنه وفق فى ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقى على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين[٣٩] .

غير أن معاوية لم يفد من هذا النصر الذى أحرزه فى متابعة الغزو البحرى ، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥هـ ، ومناوءة على بن أبى طالب من أجل الظفر بالخلافة عن مواجهة البيزنطيين ، أما هؤلاء فقد اغتنموا ذلك لتدعيم جبهتهم ، ثم وجهوا هجوما عاتيا على سواحل الشام فى سنة ٤٩هـ . ويبدو أن

البيزنطيين سببوا بهذا الهجوم خسائر كبيرة للمسلمين حملت معاوية على إقامة دار لصناعة الأسطول فى عكا ، لتنتج له سفناً بدلاً من الاعتماد على دار صناعة مصر وحدها ، فأمر بجمع الصناع والنجارين فجمعوا .ورتبهم على السواحل ، وظلت عكا دار الصناعة فى الشام إلى أن نقلت فى زمن بنى مروان إلى صور[٤٠].

ومنذ أن أسست دار الصناعة بعكا حتى أخذ المسلمون يشكلون خطرًا متزايدًا على البيزنطيين ، فقد استعمل معاوية على البحر القائد العربى عبد الله بن قيس الذى غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة .

والجدير بالذكر أن هذه الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا ، والسبب الذى دعا المسلمين إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى أن المسلمين كانوا يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن ، مثل خشب البلوط الصلد اللازم لصناعة الصوارى والقرايا والأقواس ، وخشب التنوب الكليكى الذى ينمو فى آسيا الصغرى ، والعرعر الشبيه بشجر الأرز ، ونستدل على هذا الرأى بأن كلمة ذات الصوارى لم تطلق نسبة إلى كثرة صوارى السفن ، كما يزعم فريق من المؤرخين المسلمين[٤١] ، ولكن نسبة إلى موضع بهذا الاسم استنتاجًا من قول الطبرى[٤٢] : (فركب فى مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصوارى ، فلقوا جموع الروم فى خمسمائة مركب أو ستمائة) ، وقوله أيضًا : (وأقام عبد الله بذات الصوارى أياما بعد هزيمة القوم) ، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصوارى .

ومن هذا الوقت لم تتعرض قوة المسلمين لأى تهديد خطير وأصبحت مصر والشام فى مأمن من هجمات الروم ولو أن بعض المدن الساحلية ما فتئت تتعرض لغارات فردية لم يكن لها تأثير على الوضع العام للمسلمين .

محاولات الأمويين فتح القسطنطينية

المحاولة الأولى لفتح القسطنطينية (٥٤ – ٦٠هـ / ٦٧٣ – ٦٧٩م) :

لم ينتهز معاوية فرصة النصر في معركة ذات الصواري ويهاجم القسطنطينية لأن أسطول المسلمين منى بخسائر لا يستهان بها ، ولذلك نبذ فكرة حملة القسطنطينية ذاك العام ، وفي ساعة النصر الحيوية قتل الخليفة عثمان ، وصاحب ذلك قلاقل داخلية ورأى معاوية أنه من الأفضل عقد هدنة مع الامبراطور قنسطانز الثاني سنة ٣٨هـ / ٦٥٩م وتعهد فيها معاوية بأن يدفع مائة ألف دينار . ولكن سرعان ما رفض المسلمون دفع هذه الإتاوة بعد ذلك ، مما أدى إلى فتح الطريق أمام حملات جديدة أمكن للقوة البحرية الإسلامية أن تلعب دورها فيها(٤٣) .

والواقع أن فتح القسطنطينية كان هدفًا ترنو إليه أفئدة المسلمين ، إذ كانت هذه المدينة حاضرة البحر المتوسط الكبرى ومركزًا للتجارة وسوقًا ودارًا للمقاصة لجزء كبير من العالم المتحضر ، وقد بشر الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية وأخبر أن الله سبحانه وتعالى سيغفر الذنوب جميعًا لجنود أول جيش يحاصرها ويفتحها ، فقال ﷺ : (أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم)(٤٤) .

وأراد معاوية بن أبى سفيان أن يضرب ضربة قوية يقسم بها ظهر الامبراطورية البيزنطية وذلك بالاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية وخيل إليه أن سقوط العاصمة سيجعل الإمبراطورية كلها تخر له كما خرت من قبل إمبراطورية الفرس بعد سقوط عاصمتها المدائن . ولم يكن ثمة ما يتوقع معاوية من أجله الفشل فقد اختبر المسلمون قوة بيزنطة فى الميادين المختلفة وجمع الخليفة المعلومات الكافية عن تحصينات المدينة ومواطن الضعف فيها وأعد لهذا الأمر الجليل عدته .

وكان أن وجه معاوية عنايته إلى الأسطول فأكثر من دور صناعة السفن فى الشواطئ السورية والمصرية فتضاعف إنتاج السفن وبلغ عددها فى أيامه ألفًا

وسبعمائة سفينة ذوات أحجام مختلفة وبعد أن تم تجهيز الجيش أخذ يشن على الروم حربا شعواء رتب فيها الشواتي والصوائف حتى لا يترك للبيزنطيين فترة من الزمن يريحون فيها جندهم وتيسيرا لذلك الصدام المستمر نقل ميدان تجهيز الجند من الجابية إلى معسكر دابق القريب من الحدود .

ومهد معاوية للحروب التى خاضتها قواته البحرية والبرية حول القسطنطينية نفسها فيما بين عامى ٥٤ — ٦٠هـ بحملات استطلاعية برية وبحرية متتابعة بقصد دراسة الطرق المؤدية إلى الحاضرة البيزنطية .

ففى سنة ٤٩هـ أرسل حملة برية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عوف ثم أردف به ابنه يزيد بعد ما أصاب المسلمين جوع ومرض شديد وقد اشرك فى هذه الحملة تحت قيادة يزيد بن معاوية كبار الصحابة مثل ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبا أيوب الأنصارى .

فأوغلت الحملة فى بلاد الروم حتى بلغ المسلمون القسطنطينية واشتبكوا مع البيزنطيين فى قتال عنيف وتفانى المسلمون فى القتال ، واستشهد من أبناء الصحابة عبد العزيز بن زرارة الكلابى فلما بلغ خبر استشهاده معاوية قال : والله هلك فتى العرب[٤٥] . وفى هذه الواقعة توفى أبو أيوب الأنصارى وهو يحاصر القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها ، وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه إلى الشام فى نفس العام .

لقد أصبح قبر أبى أيوب الأنصارى مثار قصص وأشعار تدعو المسلمين لمعاودة الحصار وفتح القسطنطينية حتى لا يبقى البطل أبو أيوب وحيدا فى مدفنه بتلك البقاع[٤٦] .

فمعاوية منذ أن كان واليا كان يحلم بفتح القسطنطينية ولما تولى منصب الخلافة أراد أن يضع هذا الحلم موضع التحقيق لذلك بدأ بالعمل من حيث انتهى قبل عشرة سنوات حين اضطر لعقد صلح مع البيزنطيين ، وكما رأينا فقد احتل العرب

آنذاك قبرص ورودس وكيوس خلال الفترة الأولى من معاركهم البحرية مع بيزنطة، وبعد أن تسلم معاوية الخلافة أكمل احتلال هذه السلسلة من الجزر الموصلة إلى القسطنطينية باحتلال جزيرة كزيكوس « أرواد » التى تقع بجوار العاصمة البيزنطية مباشرة . وهكذا أصبح للعرب قاعدة للانقضاض على القسطنطينية لا يفصلها عن الهدف إلا مسافة قصيرة . وقبل أن يوجه معاوية الضربة القاضية لبيزنطة ، احتل قسم من أسطوله أزمير وذلك سنة ٥٣هـ / ٦٧٢م كما احتل قسم آخر من هذا الأسطول شواطئ ليسيا وكيليكيا(٤٧) .

واتخذ المسلمون أرواد مقرًا لإدارة حملتهم على القسطنطينية . فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هبدومون التى تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين رأس كيكليبيوس الواقعة بالقرب من باب الذهب . واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر إبريل إلى سبتمبر تتخلله مناوشات بين أساطيل وجنود المسلمين والبيزنطيين من الصباح إلى المساء ، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام .

واستطاعت المدينة أن تصمد أمام الحصار طيلة هذا الوقت لأن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع ملأ خزائنها بالمؤن والعتاد ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير . على أن المسلمين أظهروا من المثابرة والجد ما أثار قلق سكان القسطنطينية . إذ فى شهر سبتمبر عادت السفن والجند الإسلامى إلى مقرها بجزيرة كزيكوس تقضى بها فصل الشتاء وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة . وبمطلع الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالجند لحصار القسطنطينية برًا وبحرًا على النحو السالف ، وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والإرهاق . وقد اقتصرت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين

على الربيع والصيف فقط طيلة السنوات السبع التي استغرقتها عملية حصار القسطنطينية في هذه المرة .

وكان البيزنطيون قد جهزوا سفنا مزودة بآلات خاصة تقذف نوعًا من النار لا يطفئها الماء ، وإنما يزيدها اشتعالاً ، واستطاعوا أن يحرقوا كثيرًا من السفن الإسلامية بهذا السلاح الجديد . على أن هذا السلاح لم يثن المسلمين عن عزمهم ، ولم يفت في عضدهم ، أو يبعث في نفوسهم القنوط ، إذ تابعوا الحصار كلما تهيأت لهم العوامل الطبيعية من اعتدال المناخ أثناء الربيع والصيف .

وساهم كثير من القادة الأمويين في إدارة عمليات هذا الحصار ، فخلف القائد عبد الرحمن بن خالد شخصية أخرى كبيرة ، وهو سفيان بن عوف واشترك ولي العهد يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية كذلك ، حتى أن هذه الشخصيات الهامة ألهبت روح الجند الإسلامي حماسة ، وشجعته على متابعة النضال طيلة السنوات السبع . ولكن في نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبي سفيان دنو أجله ، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية(٤٨).

ومن ثم دخل معاوية في مفاوضات مع الدولة البيزنطية تمهيدًا لسحب قواته المحاصرة للقسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام .

وكانت الدولة البيزنطية تتلهف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية ، إذ أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا ، من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاء وفطنة . وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه . ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة . وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة برًا وبحرًا أمام القسطنطينية تلم شملها للعودة إلى الشام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة(٤٩) .

ونستطيع أن نجمل الأسباب التى أدت إلى فشل المسلمين فى فتح القسطنطينية فى عهد معاوية بن أبى سفيان إلى :

استخدام المدافعين عن القسطنطينية النار الإغريقية ذلك السلاح البحرى المرعب الذى لا ينطفئ بملامسته الماء ، فأوقع أضرار جسيمة بسفن الأسطول الإسلامى .

وتحصينات المدينة الطبيعية لا يتيسر التغلب عليها ، وأيضًا الأسوار البرية التى أقيمت فى القرن الخامس الميلادى ، وتكونت من جدار داخلى وآخر خارجى أقوى ما عرف فى الأزمنة الغابرة ، وكانت الأسوار الداخلية على بعد بضع ياردات خلف الأسوار الأمامية ، وأعلى منها حتى يمكن قذف النار الإغريقية من أربع مستويات مختلفة على المحاصرين .

أما أسوار البحر ، فكانت أقل مناعة لعزلتها ، ولكن الأسطول البيزنطى كان يحميها ، ولو أن هذا الأسطول لم يكن متفوقًا على الأسطول الإسلامى إلا أنه كان رابضًا فى مأمن فى القرن الذهبى تحميه السلسلة العظيمة التى مدت عبر المدخل ، لذا لم يقدم المهاجمون على مهاجمة واجهة المدينة من جهة البحر حيث يكونون عرضة من هجوم مضاد من المراكب البيزنطية التى يمكن إرسالها من القرن الذهبى .

إن القسطنطينية لم تكن فى موقع مكشوف بل كان يحميها بحر الأرخبيل وجزائره وخلجانه ، هذا من ناحية ومن ناحية الأخرى حماها بحر مرمرة ومن بعده البحر الأسود . هذا فى حين كانت مراكز القوة العربية البحرية فى مصر وسورية وإفريقية مكشوفة[٥٠] .

هذا بالإضافة إلى أن أسوار القسطنطينية المنيعة وما فوقها من أبراج دأب الروم على حفظها وصيانتها .

وحملات المسلمين فقدت بشكل شبه دائم عنصر المفاجأة ، فسكان شمال بلاد الشام مع أجزاء كبيرة من الجنوب كانوا يدينون بنفس العقيدة التى كانت تدين بها بيزنطة لذلك كانت بيزنطة تعرف دائمًا وبشكل مسبق أخبار الحملات وغاياتها وما لها وما عليها وكانت بيزنطة تملك من المقدرة ما يمكنها من الاستعداد التام قبل وصول الخطر بوقت كاف .

يضاف إلى ذلك ضعف الخطط الإسلامية التى رسمت لفتحها حيث أن المسلمين صرفوا معظم جهدهم من الجهة الآسيوية وكان عليهم أن يقوموا بعزل القسطنطينية من الجهة الأوروبية حتى يمنع عنها العون الأوروبى ، كما فعل آل عثمان فيما بعد.

وقابل هذا الضعف فى الخطط الإسلامية استبسال الروم فى الدفاع عن مدينتهم لأنهم اعتقدوا أن الأمر أصبح بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت فما بعد ذلك الخطر الداهم الذى يكاد ينتزع قلب دولتهم شئ يلهب الحماس ويزيد الحمية خاصة بعد أن وجدوا أنفسهم أمام عدو يعمل لنشر عقيدة تغاير عقيدتهم وليس وراءهم من يستطيع أن يحمى العقيدة المسيحية آنذاك فاتخذت الحرب فى نظرهم صبغة دينية فاستبسلوا فى الدفاع .

هذا كله فضلاً عن عوامل طبيعية ، منها هبوب رياح عاتية على الأسطول الإسلامى أثناء سيره بالقرب من سواحل آسيا الصغرى دمرت عدداً كبيرًا من سفنه وتفشى المرض فى المسلمين المرابطين فى بلاد لم يألفوا الإقامة فى مثل مناخها البارد .

وكان البيزنطيون يملكون ما يلزم لصناعة الأساطيل من أخشاب وحديد وغير ذلك ، واستطاعوا أن يحولوا دون حصول المسلمين على ما يلزمهم منها . لذا جددوا أسطولهم باستمرار .

المحاولة الثانية لفتح القسطنطينية (٩٨ – ٩٩هـ / ٧١٧ – ٧١٨م) :

وبدأ التأهب للحصار الثانى منذ بداية عهد الوليد بن عبد الملك ، الذى تـابع سياسة تقوية الأسطول الإسلامى وعمل على تنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية وخلق مناخ طيب للعمليات الحربية ضد الإمبراطورية البيزنطية ، واتخذ من منطقة الثغور بآسيا الصغرى مجالاً لتدريبات قواته ، كما أنه اهتم بالصوائف والشواتى البحرية ليقض مضجع الروم البيزنطيين ويمهد للهجوم الكبير على القسطنطينية(٥١) .

وجعل الوليد هدف تحركاته الحربية الأولى الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية فحاصر مدينة طوانة — مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور والذى تسلكه الجيوش الإسلامية فى طريقها لمهاجمة القسطنطينية وتمكن من فتحها بعد عامين من الحصار الشديد .

واستمر المسلمون فى شن غاراتهم على مدن آسيا الصغرى فنشروا الذعر والخوف فى صفوف الجيش البيزنطى واستولوا على معاقل هامة بالقرب من البسفور .

ولكن هذه الحملات لم تكن إلا حملات استطلاعية تمهد للزحف الأكبر على القسطنطينية .

وكان أن بدأ المسلمون فى تجهيز جيش عظيم لفتح القسطنطينية بقيادة مسلمة ابن عبد الملك فعلمت بيزنطة بذلك فأوفد الإمبراطور أنسطاس سفارة إلى دمشق لتتباحث مع الدولة الإسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكنه زود السفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضى التجسس على مدى استعداد المسلمين الحربى ، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية . وكان رئيس هذه السفارة

رجلاً حصيفًا يدعى دانيال حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره .

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شاهدت عظمة المسلمين فى عاصمتهم ، ونشاط الخليفة فى أعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية ، فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطى صدق عزيمة المسلمين على الجهاد ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة ، ونفذ أنسطاس تعليمات السفارة ، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، ثم ملأ خزائن الإمبراطورية بكميات هائلة من القمح وغيره من الحاجات التى يتطلبها المدافعون عن المدينة ، واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ووضع وسائل الدفاع عليها(٥٢) .

ولكن وفاة الوليد أدت إلى إرجاء إنفاذ الحملة إلى مقصدها .

فلما تولى سليمان الخلافة أخذ يجهز الجيوش للسير إلى القسطنطينية ومهد لذلك بغزوه بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزارى على بلاد الروم فى سنة ٩٧هـ(٥٣) .

وفى العام التالى حشد سليمان قوات كثيفة برية وبحرية وزودها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح لحرب طويلة الأمد بقيادة أخيه مسلمة وأمره بأن يتوجه إلى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره .

وترك الخليفة سليمان عاصمته وأقام فى دابق بالقرب من حلب ليكون أقرب إلى ميدان القتال . (فلما نزل دابق أعطى الله عهدًا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية)(٥٤) .

ولما توغل مسلمة فى آسيا الصغرى هابه الروم فاتصل به قائد أرمنى اسمه ليو الأيسورى كان يتطلع للوصول إلى العرش الامبراطورى فاتفق ليو مع مسلمة

على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية وما كاد يصل إلى القسطنطينية حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدهم من كل أقواتهم وتوج إمبراطورا على القسطنطينية باسم ليو الثالث الأيسورى فى مارس سنة ٩٨هـ / ٧١٧م .

نصب مسلمة المنجنيق وضرب القسطنطينية بعنف وشدد الضغط عليها وحفر حول معسكره حفيرا عميقا وانتسف المزارع القريبة ومنع الأقوات من التسرب إلى داخل القسطنطينية .

أما الأسطول فقد رابطت قطعه حول المدينة بقيادة سليمان بن معاذ الأنطاكى وتمكن هذا الأسطول الذى بلغ ١٨٠٠ سفينة من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود ولكن عاصفة عاتية حطمت عددا كبيرا من السفن وسلط البيزنطيون نيرانهم اليونانية على الأسطول الإسلامى .

ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعناد محاصرة المدينة وشدد الضغط عليها ، (وعمل بيوتا من خشب ، فشتا فيها ، وزرع الناس ... وأكلوا من الزرع فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهرا لأهلها معه وجوه أهل الشام)[٥٥] .

وبرهن المسلمون بهذا الثبات طوال الشتاء القارس أنهم أولو بأس وعزم صادق فى الجهاد ، وأنهم حريصون على رفع راية الإسلام فى كل مكان .

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك من الشام ومصر .

واستخدم المسلمون النفط ، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية فى حصار القسطنطينية وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام .

ولكن ما أن حل الشتاء ببرده وثلجه حتى هلك عدد كبير من الجند المسلمين ونفقت معظم الخيول والدواب ، وعدمت الأقوات ، ومات قائد الأسطول الإسلامى

سليمان الانطاكى مما أدى إلى اضطراب فى صفوف البحرية الإسلامية ، وأصاب المسلمين قحط وضنك شديد حتى أكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق ، وكل شئ غير التراب وسليمان مقيم بدابق(٥٦) .

توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك – رحمه الله – والجيش الإسلامى محاصرا القسطنطينية وتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز بعده الذى رأى أنه يجب أن يكون هناك فترة هدوء واستقرار لتدعيم الصرح الإسلامى وتنظيم الدولة وتأمين حدودها فأرسل إلى مسلمة فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨م بعد حصار دام سنة كاملة يطلب منه العودة بجيشه وأسطوله إلى الشام ، ووجه إليه خيلا عتاقا وطعاما كثيرا، وحث الناس على معونتهم(٥٧) .

وهكذا عادت الجيوش الإسلامية إلى قواعدها بعد أن أدت رسالتها فى إعزاز دولة الإسلام ، وحملت عاصمة البيزنطيين وأباطرتها على التخلى عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة فى استعادة سالف أراضيهم التى دخلت فى رقعة الإسلام .

* * *

وقد صرفت أحداث الحصار الأموى للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقية ، واعتبروا حماية هذا الإقليم فى المرتبة الثانية بالقياس عن الدفاع عن عاصمتهم . وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية ، حيث جعلوا من شمال إفريقية ركنا هاما من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد وأثبت العرب المسلمون للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قبضة البحرية الإسلامية وضرباتها الشديدة .

وترك الخلفاء الأمويون بحملاتهم المتكررة على القسطنطينية سجلا حافلا بجهودهم فى نصرة الإسلام ، وحافزا جعل خلفاءهم من الدولة الإسلامية يتطلعون للاستيلاء على هذه العاصمة . وظلت رسالتهم ماثلة حتى حققها شعب إسلامى فتى،

هم الأتراك العثمانيون بعد انقضاء سبعة قرون تقريبًا على الحملة الأموية الكبرى زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

فشرف الله تعالى هذه المدينة بالفتح الإسلامى سنة ١٤٥٣م على يد القائد العثمانى البطل محمد الثانى « الفاتح » لتصبح فيما بعد عاصمة للدولة الإسلامية العثمانية المترامية الأطراف .

مراجع البحث

(١) العبادى ، د. أحمد مختار ، ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ٢جـ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية سنة ١٩٧١م ، جـ٢ ص١٤ – ١٥

(٢) العبادى : جـ٢ ص١٥

(٣) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : المقدمة ٢جـ ، تحقيق د. على عبد الواحد ، القاهرة ، جـ٢ ص٦٢٨

(٤) ماهر د. سعاد : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، وزارة الثقافة المصرية، نشر دار الكتاب العربى ، القاهرة سنة ١٩٦٧م ، ص٦٤ .

(٥) عبد العليم ، د. أنور : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، مجلة عالم المعرفة ، إصدار المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت عد ١٣ ، يناير ١٩٧٩م ، ٩١

(٦) البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) : فتوح البلدان ، القاهرة سنة ١٩٣٢م ، ص٣٧

(٧) البلاذرى : ص٤٦٤

(٨) المقريزى ، تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، ٢جـ ، طبعة بولاق القاهرة سنة ١٢٧٠هـ ، جـ٢ ص١٩٠

(٩) المقريزى ، جـ٢ ص١٩٠

(١٠) ماهر : ص٥٦

(١١) المقريزى ، جـ٢ ص١٩٠

(١٢) ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤هـ) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة سنة ١٩١١م ، ص١٦٣

(١٣) ابن عبد الحكم : ص١٦٥

(١٤) اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب (ت ٢٨٤هـ) : تاريخ اليعقوبى ، ٢جـ ، دار صادر بيروت لبنان (د. ت) ، جـ٢ ص١٧٧

(١٥) سورة النحل : الآية ١٤

(١٦) سورة النحل : الآية ١٦

(١٧) سورة الأنعام : الآية ٩٧

(١٨) سورة النور : الآية ٤٠

(١٩) سورة الرحمن : الآية ١٩ - ٢٢

(٢٠) سورة الإسراء : الآية ٦٦

(٢١) رواه .

(٢٢) سالم ، د. السيد عبد العزيز : طرابلس الشام فى التاريخ ، الإسكندرية ، سنة ١٩٦٧م ، ص٣٢

(٢٣) العدوى ، د. إبراهيم أحمد : الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية) ، الدار القومية للطباعة والنشر ط٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٣م ، ص٨١

(٢٤) الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، ١١ج ، ط٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٧م ، جـ٤ ص٢٥٨

(٢٥) البلاذرى : ص١٣٤

(٢٦) العبادى : جـ١ ص١٦

(٢٧) العدوى : ص٨٣ - ٨٤

(٢٨) البلاذرى : ص١٥٠

(٢٩) الطبرى : جـ٤ ص٢٦٠

(٣٠) البلاذرى : ص١٨١

(٣١) العدوى : ص٩٤ - ٩٦

(٣٢) البلاذرى : ص١٥٣

(٣٣) البلاذرى : ص٢٢٤

(٣٤) العدوى : ص١٠١

(٣٥) العدوى : ص١٠٣

(٣٦) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٠

(٣٧) ابن عبد الحكم : ص٢٥٥ - ٢٥٨

(٣٨) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٢

(٣٩) عثمان ، فتحى : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ٣جـ ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٧م ، جـ٢ ص٣٣٨

(٤٠) العبادى : جـ٢ ص١٩

(٤١) انظر ابن عبد الحكم : ص٩٠ ، والكندى : الولاة ، ص١٣ ، والمقريزى : جـ٣ ص١٦٥، وابن تغى : جـ١ ص٨٠

(٤٢) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٠

(٤٣) اليعقوبى : جـ٢ ص٢٥٨

(٤٤) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ، باب ٩٣

(٤٥) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، بيروت سنة ١٩٦٥م ، جـ٣ ص٤٥٩

(٤٦) شلبى ، د. أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ٢ ص١١٥

(٤٧) عاقل ، د. نبيه : الإمبراطورية البيزنطية ، دمشق سنة ١٩٧٠م ، ص١١٤ - ١١٥

(٤٨) العدوى : ص١٧٣ – ١٧٤ .

(٤٩) العدوى : ص١٧٥

(٥٠) أرشيبالد ، د. لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ – ١١٠٠م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ، ص٢١ - ٢٢

(٥١) عواد ، د. محمد أحمد : الجيش والأسطول الإسلامى فى العصر الأموى ، ط١ ، الأدبية للطباعة والنشر ، الخليل سنة ١٩٩٤م ، ص٢٧١

(٥٢) العدوى : ص٢١٥

(٥٣) ابن الأثير : جـ٥ ص٥٣١

(٥٤) الطبرى : جـ٦ ص٥٣١

(٥٥) الطبرى : جـ٦ ص٥٣٠

(٥٦) الطبرى : جـ٦ ص٥٣١

(٥٧) الطبرى : جـ٦ ص٥٥٣